

الرموز على زربية الشعابنة الرموز على زربية الشعابنة

أ. / شنيينة مختار *

Abstract:

Parmi les activités artisanales essentielles à Metlili chaabna, on trouve la production du tapis. Cette tradition artisanale demeure l'un des meilleurs moyens d'expression artistique de la vie féminine au M'zab. Et pour s'orienter dans le passé, les motifs et symboles sur le tapis de chaabna reflètent l'histoire et la vie les bédouines au Sahara algérien.

Mots clés: Tapis, Motifs et symboles sur le tapis de chaabna, Femme du M'zab, Metlili chaabna.

ملخص:

من بين النشاطات التقليدية الأساسية في ميتليلي الشعابنة، نجد إنتاج الزرابي. هذه الحرفة التقليدية تبقى أحد أهم وسائل التعبير الفني في حياة المرأة الميزابية. وإذا توجهنا من الماضي السحيق، لوجدنا الوسم والرموز على زربية الشعابنة تعبر بحق عن تاريخ وحياة البدو في الصحراء الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: الزربية، الوسم والرموز على زربية الشعابنة، المرأة الميزابية، ميتليلي الشعابنة.

* أستاذ باحث في الصناعات التقليدية والحرف - غرداية

مخطط المقال:

مقدمة

1) تعريف بالصناعة التقليدية

1-1) تعريف المنظمات الدولية للصناعة التقليدية

2-1) تعريف التشريع الجزائري للصناعة التقليدية والصناعة التقليدية الفنية

2) الشعانة والوسم والرموز على الزربية

1-2) ظهور زربية الشعانة

2-2) رموز زربية الشعانة من الرموز التي توضع على الإبل

خاتمة

مقدمة:

امتازت الصناعة التقليدية عند الشعانة بالجودة وروعة أشكالها، وهي تختلف من منزل إلى آخر ومن محل إلى محل، فتجد من يهتم بصناعة الجبس وتشكيله للزينة والبناء ومنهم من يهتم بصناعة الجلود وتشكيلها وتحويلها أحذية وألبسة جلدية.

وفي هذا الموضوع سنخرج على عبر تاريخ الشعانة، وكيف اهتمت المرأة الشعانية بهذا الفن في صناعة الزرابي (الزربية الشعانية) والتي أصبح يضرب بها المثل في منطقتنا بغرداية فيقال زربية الشعانة. وتلك الرموز التي تعددت في أشكالها وأحجامها وطريقة استعمالها عند الرجل الشعاني في حله وترحاله، في حربه وسلمه، حتى يتميز ماله وما لغيره، وأقصد هنا أن الشعانة امتازوا بتربية الجمال والحياد والماشية بأنواعها، وكان لزاما على العشائر أن يجذوا طريقة للفصل أو للتفريق بين ما للعشيرة والعشيرة الأخرى وهذا منذ قرون خلت.

مما العرض السابق، نطرح الإشكالية: كيف رموز زربية الشعانة المستنبطة من الرموز التي توضع على الإبل؟

1) تعريف بالصناعة التقليدية:

الصناعة التقليدية هي نفسها حضارة الأمة الجزائرية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، والصناعة التقليدية المستوحاة من الزربية هي تراث صحرائنا الشائعة.

1-1) تعريف المنظمات الدولية للصناعة التقليدية:

هناك تعريفات عديدة للصناعة التقليدية في العالم ولا بأس أن نرى أو نأخذ أهم التعاريف لبعض المنظمات الدولية في تعريف هذه الصناعة التقليدية:

التعريف الأول - مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (CNUCED):

يطبق تعبير المنتجات المنتجة باليد على كل الوحدات المنتجة بمساعدة أدوات أو وسائل بسيطة وكل المعدات المستعملة من طرف الحرفي، والتي تحتوي في جزئها الأكبر على عمل اليد أو بمساعدة الرجل في حين أن المنتجات الصناعية التقليدية تتميز عن نظيرتها اليدوية ب: الطابع التقليدي أو الفني الذي يعكس خصائص وتقاليد البلد المنتج، ومنتجات حرفين يمارسون غالبا عملهم في المنزل¹.

التعريف الثاني - المنظمة الدولية للعمل (OIT):

تطلق تسمية الحرفي على الأشخاص الذين يمارسون أعمالهم باليد أو بمساعدة أدوات يدوية أو ميكانيكية أو غيرها، تساعد على تقليص الجهد البدني والوقت اللازم للقيام بمهام معينة للوصول إلى منتجات ذات جودة، ويصنفون إلى حرفين وعمال: مهن البناء، مهن للتعددين، الهندسة الدقيقة ومهن الفن (الصباغة وما شابهها)، مهن أخرى ذات طابع حرفي (مهن معالجة وتحضير المواد الخام للزراعة والصيد وتحويلها إلى أغذية ومنتجات أخرى)، النجارة، المنسوجات، الفرو والجلود وغيرها من المواد².

التعريف الثالث - منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية:

قسمت الأمم المتحدة للتنمية الصناعية الحرف اليدوية والصناعة التقليدية إلى أربعة أقسام: وهنا أخذ تعريف الحرف التجميلية إلى أربعة أقسام³:

1. الحرف التقليدية الجميلة: هي التي تعبر منتجاتها عن الخصائص العرقية والتراث التقليدي، حيث تكون ذات طابع فريد من نوعه، تنتج بالوحدة وتصنيفها ضمن الأعمال الفنية كما تعرض منتجاتها في المتاحف والمعارض الفنية ويتم شراؤها من قبل هواة جمع الآثار؛
2. الحرف التقليدية: وهي حرف تستخدم أساليب تقليدية وتكون منتجاتها مصنوعة يدويا باستعمال مواد أولية تقليدية، الفرق بينها وبين الحرف التقليدية الجميلة هي أن الحرفيين يلجئون إلى المساعدة من طرف المصممين لمساعدتهم على ضبط المنتج حسب متطلبات السوق مع ضمان ظهور الخصائص العرقية والخلفية التاريخية والمحافظة عليها ويمكن أن تنتج بكميات كبيرة؛
3. الحرف التجارية؛
4. والحرف المصنعة.

1-2) تعريف التشريع الجزائري للصناعة التقليدية والصناعة التقليدية الفنية:

بعدما قمنا بتعريف الصناعة التقليدية عن طريق المنظمات الدولية كان لزاما علينا كذلك تعريفها وطنيا فلقد جاء في تعريفها في الجريدة الرسمية: "الصناعة التقليدية والصناعة التقليدية الفنية، هما كل صنع يغلب عليه العمل اليدوي ويستعين فيه الحرفي أحيانا بالآلات لصنع أشياء نفعية أو تزيينية ذات طابع تقليدي وتكتسي طابعا فنيا يسمح بنقل المهارة العريقة"⁴. وبهذه التعاريف للصناعة التقليدية سوف نحتاجها في التأكيد على أن صناعة الزرابي هي نسيج تقليدي له طابع خاص بالمرأة الشعانبية.

وفق المرسوم التنفيذي 07-339، المتضمن قائمة نشاطات الصناعات التقليدية والحرف⁵: الصناعات التقليدية والصناعات التقليدية الفنية: هما كل صنع يغلب عليه العمل اليدوي ويستعين به الحرفي أحيانا بالآلات لصنع أشياء نفعية و/أو تزيينية ذات طابع تقليدي وتكتسي طابعا فنيا يسمح بنقل مهارة عريقة، وتعتبر الصناعة التقليدية صناعة تقليدية فنية عندما تتميز بأصالتها وطابعها الانفرادي والإبداعي. وتضم النشاطات المرتبطة بصناعات:

- (1) المواد الغذائية؛
- (2) الطين، الجبس، الحجر، الزجاج وما يماثلهم؛
- (3) المعادن (بما في ذلك المعادن الثمينة)؛
- (4) الخشب ومشتقاته وما مثله؛
- (5) الصوف والمواد المماثلة له؛
- (6) القماش؛
- (7) والجلود.

(2) الشعانبة والوسم والرموز على الزربية:

لما قدم الشعانبة^{1*} من شبه الجزيرة العربية، مكثوا بناحية فزان بليبيا في واد اسمه "واد ليلي"، أقاموا فيه وشيدوا قصرا كبيرا، مازالت أنقاضه قائمة حتى اليوم، ومع تزايد أعداد الشعانبة في هذه البقعة من وطننا العربي الكبير، نزحت بعض العشائر من داك المكان (غرب ليبيا) تحديدا إلى جنوب الجزائر بمكان اسمه "متليلي"^{**}.

(1-2) ظهور زربية الشعانبة:

في متليلي أو غيرها من مناطق تواجد الشعانبة، الخيمة هي المسكن الأساسي عند الشعانبة الرحل في الصحراء وتكون مصنوعة من شعر الماعز وهي تمتاز باللون الأبيض والأسود. وبجانب هذه الخيمة يوضع المنسج الخاص بالزربية الشعانبية وهو دليل على أصالة هذه الزربية وعلاقتها بهذه البيئة:

* أصل كلمة الشعانبة chaamba هو الشعاع ونبا، وهي في الأصل مركبة من الكلمتين، وكانوا يقصدون بها شعاع ظهر وبان في الأفق من بعيد لأن الشعانبة في الأصل كان يتركون النار بالليل مشتعلة في أعلى الجبال التي كانت تحيط به (وهو تقليد عربي أصيل قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر: وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار)، والمقصود بها هو الدلالة على وجودهم في هذه المنطقة من أجل إكرام الضيف وإرشاد التائه... الخ. فظهور الشعاع بالليل ينبئ لتواجد قوم بهذا المكان، فيلجؤون إليهم وهكذا لما تترك الشعانبة النار مشتعلة في قمم الجبال المحيطة بهم يعبرون عن الشجاعة التي كان يمتازون بها، وهكذا هم أهل كرم وجود، وشجاعة وحرب. وتوجد فرضية أخرى، وهي أنهم كانوا يمتلكون عددا هائلا من الرؤوس الماشية ومن بينها الكباش المشعنة، التي تتميز بقرونها المستوية التي تلتوي على رؤوسها قبل الأذن¹. ونرى راحة الفرضية الأولى في التعريف بكلمة الشعانبة لما لها من مدلول يقبله العقل وترتاح له النفس، وهي شيمة باقية حتى اليوم عند الشعانبة من كرم الضيافة وإغاثة الملهوف والانتصار للمظلوم.

** بعدما استقروا في متليلي metlili وفي المكان الذي كان يشبه الأرض التي جاؤوا منها فقال قائلهم، هذا الوادي: "مثل وادي ليلي". وتداولوا كلمة "مثل ليلي" فيما بينهم حتى نحتوا منها اسم "متليلي". أما كوناى CAUNEILLE، فيقول عن أنتمولوجيا كلمة متليلي، بأن الشعانبة اصطلاحا على كلمة عسل المكان، فكلمة العسل هي "مات ويلي تعني" المكان". وهذا الطرح في التعريف بمتليلي فيه تشابه كبير مع ما ذهب له الكثيرون أن كلمة متليلي كانت تنطق وتكتب في الأصل متليلي، بحرف الثاء بدلا من التاء وهو ما أكدته بعثة علمية تابعة للجمعية الجغرافية الفرنسية سنة 1859 عند النقائنها ببعض المتعلمين من أبناء متليلي الشعانبة". وكلمة متليلي أي "مثل ليلي" فيه دليل قاطع على أن هناك تشبيه مكان بمكان، مما يجعل التعريف الأول هو الأصح. ارجع في هذا الشأن إلى: عبد الحميد مسعود بن ولهة، «الحركة الوطنية والثورة التحريرية بناحية غرداية إداريا وتنظيميا»، دار صبحي للطباعة والنشر، الجزء 02، غرداية، 2013، ص 31.

- **الشعانية الرجل:** حيثما يوجد الكلاً الخاص بالإبل في الصحراء، تجد الشعانية الرجل وهم يسكنون الخيام، وأما نساؤهم فيضعن آلة نسيج الزربية بالقرب من هذه الخيام؛
- **الشعانية شبه الرجل:** وهم متواجدون بين البادية والمدينة وهذا حسب احتياجاتهم الاجتماعية وارتباطاتهم بالمدينة وهم ينقسمون إلى قسمين: **القسم الأول:** مند بداية الحر يدخلون للمدينة ويمكنون فيها نصف سنة تقريبا، **والقسم الثاني:** في بداية الصيف يبقون في البادية مستقرين حتى بداية الخريف، حيث يدخلون للمدينة من أجل جني محاصيلهم من التمر؛
- **والشعانية المستقرون:** ويقصد بهم مربو الإبل ولكنهم يقطنون المدن أي المحور الثابت، وهذه الفئة من الشعانية (المستقرين) كانوا من قبل في حل وترحال، ولكن صعوبة المعيشة دفعتهم وأجبرتهم على البقاء بالمدن مع إخوتهم الشعانية من العشائر الأخرى ولكن هذا بدون الاستغناء عن تربية الإبل.

كان لقسوة الطبيعة دور كبير في الحياة الاجتماعية للشعانية الرجل فكلما ازداد الجفاف كان لزاما على عشائر الشعانية الابتعاد عن بعضها البعض من أجل الحصول على مساحات مخصصة للرعي، وهذا الانفصال أو الابتعاد كان يدوم لبضعة أشهر أو يزيد وبعدها يكون اللقاء لعشائر الشعانية في أحد الآبار المخصصة للسقي، وهنا يأتي دور الموسم للفصل بين الإبل في حالة الاختلاط لتأخذ كل عشيرة من الشعانية ما تمتلك من الإبل وهذا بفضل الموسم الموجود على كل جمل حسب العرف معترف عليه بين الشعانية، وهذا الموسم الذي أصبح رمزا في زربية الشعانية فشكر كل الشكر لأمهاتنا الفضليات الحريصات على الخصوصية والأصالة.

ليس بشيء غريب أن نقول أن كل المجتمعات امتازت بصناعة الأفرشة والزرابي عبر القرون الماضية، وأنه كان لكل مجتمع نسيج خاص يمتاز به بالرغم من أن الرموز كانت متنقلة من مجتمع إلى آخر، مع ذلك نجد بعض المجتمعات تتفرد بشكل أو طابع خاص بها من ناحية الشكل الرموز التي تعددت في أشكالها وأحجامها وطريقة استعمالها عند الرجل الشعاني في حله وترحاله، في حربه وسلمه، حتى يتميز ماله وما لغيره.

ونحن نعلم أنه منذ القدم وحتى لوقتنا هذا مازال الرعاة، وخاصة أصحاب الإبل في صحرائنا الكبرى بالجزائر، وأقصد بهم هنا الشعانية والعشائر التي تضمها تعتني بهذه الثروة وتهتم بها بحفاوة.

ولكن الرجل الشعاني يمتاز بحبه لدينه الإسلامي وورعه وحفاظه على الأمانة، كان يلزم نفسه بأن يعيد الإبل التي لا تخص عشيرته إلى العشيرة التي أهملت في الصحراء ووصلت لهذه العشيرة.

ومن هنا اهتدى رجال العشائر الشعانبة إلى الطريقة جميلة وهي طريقة الرموز المكتسبة من طرف أجدادنا العرب منذ القدم حتى تكون خاصة بكل عشيرة ليجعلوها كوسم على جمالها تتميز بها وترمز لها دون سواها، لتجعله فيما بعد المرأة الشعانبية في زربية لتكون مميزة عن بقية الزرابي الموجودة.

(1-2) رموز زربية الشعانبة من الرموز التي توضع على الإبل:

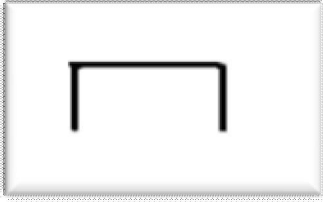
توضع الرموز على الإبل كعلامة تمييز، فمنذ القدم في أرض الحجاز ونجد وهما أرضا الحضارات المختلفة نجد بأنه كانت القبائل العربية تضع الوسم على إبلها في مواضع مختلفة وبأشكال مختلفة وهذا حتى يسهل التعرف على أصحاب هذه الإبل الموسومة. ومن هنا امتاز العرب عن غيرهم بوضع أشكال الهندسية ورسومات مستوحاة من بيئتهم ومن خيرات صحرائهم فمثلا نجد على إبلهم الرموز التالية: (الحافر، نصف الدائرة، الحلقة، العمود، المغزل، القلادة... الخ).

- رموز قبائل قديما:

قبيلة "عنزة" هي قبيلة تنتسب إلى وائل* المشهور بالتاريخ. والجدول التالي يوضح بعض الرموز الخاصة بالعشائر التي تضمها قبيلة عنزة وهي كالآتي⁶:

* وائل هو بن قاسط بن هنب بن أفصي بن دهمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة.

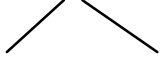
الجدول 01 - الرموز الخاصة بالعشائر التي تضمها قبيلة عنزة

اسم الوسم	شكل الوسم
المطرق	
الحلقة	○
العرقاة	×
العراقي	×
الذراع	—
الباب	
الحية (الأفعى)	~
الدلو	⌘
الهجار	∪
الرباع	⌘

والهدف من التعريف بالوسم الخاص بالإبل هو كيف ابتكرها العرب حتى يسهل التعرف على ملكية كل مجموعة وكيف استعملتها ورسمتها على جدران الآبار وحتى على مداخل المنازل. وقبل أن ندخل البحث عن الزربية الشعانبية ورموز عشائرها التي انتقلت من الوسم إلى رمز بشكل هندسي جميل ودور الفعّال للمرأة في هذه الصناعة، لأبد علينا أن نعود قليلا إلى القبائل العربية قديما ونأخذ على سبيل المثال قبيلة السهول⁷ وهي إحدى القبائل العربية التي امتازت بكثرة عشائرها، وهذا مما يفسر لنا كثرة الإبل مع كثرة الرموز التي تطبع وتوسم على إبلها "الوسم".

وهنا نأخذ بعض أسامي عشائر قبيلة السهول ورموزها التي كانت تتخذها كدليل لتعريف بأحقيتها في الإبل الموسومة، والجدول التالي يوضح ذلك:

الجدول 02 - أشكال الوسم لقبيلة السهول

أسم العشيرة	شكل الوسم	اسم الوسم	موقع الوسم
آل الرشيد		الحافر	على رقبة الجمل من اليمين
القشاقشة		حلقة ومطرقين	على الفخذ من اليمين
آل مجيد		الرويكب	على الخد من اليمين
الزفاعين	T	المغزل	على الرقبة من يسار
المحلف		القلادة	أسفل الرقبة
المحانية		البقام	بقرب من الفم من اليمين لليسار

من خلال الجدول، نستنتج أن كل هذه الرموز التي مرت على الحضارات القديمة العربية وما احتوته منحوتاتها وكتبها عبر العصور الغابرة مرورا بحضارة سبأ والحضارة الأشورية وغيرها تدل بدليل القاطع على أن هذه الرموز هي رموز عربية مستوحاة من واقعها، أرض الحجاز ونجد، رموز على شكل حافر وشكل مغزل وشكل حية وشكل العمود... الخ.

- هوية رموز الشعانبة في الإبل وعلاقتها بالزربية:

كما أسلفنا الذكر في الجدول السابق وتسمية الرموز العربية بأنها من فكر الرجل العربي قديماً⁸، وهذا الإبداع بقي مستمرا عبر العصور جيلا بعد جيل، وهذه الطريقة في الوسم ورثها الشعانبة من هذه القبائل العربية ونحن نعلم بأن أصول الشعانبة تعود لجذور هذه القبائل وأقصد هنا قبيلة بني سليم⁹ وهي قبيلة عربية. رموز الشعانبة التي وجدناها موثقة في الكتب وفي الروايات الشفوية كلها تثبت بأنها ليست ذات علاقة بالحروف اللاتينية أو الأمازيغية فهي خاصة بالشعانبة، وحال هذه الرموز هو من حال الزربية الشعانبية التي سنثبت من خلال ما سنكتبه بأن للشعانبة زربية خاصة بهم ولهم لمسة خاصة بهم كذلك¹⁰. والمتتبع لرموز الشعانبة على الزربية أو حتى التي هي وسم على الجمال ربما يخطر على خاطره بأنها ليست عربية خالصة، ويوجد من كثرة الأدلة التي تثبت بأنها رموز الشعانبية خالصة لهم فمثلا حرف (لا) وهو الوسم الذي يوضع على إبل عرش أولاد إسماعيل بورقل وكان يسمى باسم "لام ألف" ولكنه لما يوضع على رقبة الإبل من الجهة اليمنى نراه على شكل (y) تقريبا وهو يشبه حرف لاتيني نوعا ما. ونجد "Y VES REGNIER" قد رفع هذا اللبس وقال هذا الرمز كانت الشعانبة تسميه باسم "لام ألف" كما هو مبين في الصورة من كتابه¹¹.

Pour les Ouled Smail le taba qu'on nomme lamalif y
sur le cou, côté droit, et n° sur la cuisse droite.

ترجمة الصورة: بالنسبة لأولاد إسماعيل الوسم يسمى باسم لام ألف

وهذا دليل قوي الحجة بأن "الرقمة" الموجودة في زربية الشعانبة هي رموز عربية لا غبار عليها.

خاتمة:

توضع الرموز على الإبل كعلامة تمييز، إذ نجد في مختلف الحضارات أن القبائل كانت القبائل العربية تضع الوسم على إبلها في مواضع مختلفة وبأشكال مختلفة وهذا حتى يسهل التعرف على أصحاب هذه الإبل الموسومة. إن هذه الرموز تدل بدليل القاطع على أن رموز عربية مستوحاة من واقعها، ونجد، رموز على شكل حافر وشكل مغزل وشكل حية وشكل العمود... الخ.

إن تسمية الرموز العربية بأنها من فكر الرجل العربي قديما، وهذا الإبداع بقي مستمرا عبر العصور جيلا بعد جيل، وهذه الطريقة في الوسم ورثها الشعانبة من هذه القبائل العربية. ورموز الشعانبة التي وجدناها موثقة في الكتب وفي الروايات الشفوية كلها تثبت بأنها ليست ذات علاقة بالحروف اللاتينية أو الأمازيغية، فهي خاصة بالشعانبة، وحال هذه الرموز هو من حال الزربية الشعانبية. والمتتبع لرموز الشعانبة على الزربية أو حتى التي هي وسم على الجمال ربما يخطر على خاطره بأنها ليست عربية خالصة، ولكننا تثبت بأنها رموز الشعانبية خالصة لهم.

الهوامش والمراجع:

- 1 بن صديق نوال، «التكوين في الصناعات والحرف التقليدية بين المحافظة على التراث ومطلب التجديد دراسة أنثروبولوجيا بتلمسان»، رسالة ماجستير في أنثروبولوجيا التنمية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2012، ص 7.
- 2 Organization International de Travail, «Résolution sur la mise à jour de la Classification internationale type des professions», 03 au 06 décembre 2007, <http://www.ilo.org/public/french/bureau/stat/.../resol08.pdf>
- 3 United Nations Industrial Development Organisation (UNIDO), «Creative Industries and Micro & Small Scale Enterprise Development A Contribution to Poverty», Vienna, 2005, pp. 29-30.
- 4 الأمر 01-96 المؤرخ في 19 شعبان 1416 هـ الموافق لـ 10 جانفي 1996 م المحدد للقواعد التي تحكم الصناعة التقليدية والحرف (الجريدة الرسمية، العدد 03-1996م).
- 5 المرسوم التنفيذي 339-07 المؤرخ في 19 شوال 1428 هـ الموافق لـ 31 أكتوبر 2007 م (الجريدة الرسمية، العدد 70-2007م) المعدل والمتمم للمرسوم التنفيذي 140-97 المؤرخ في 23 ذي الحجة 1417 هـ الموافق لـ 30 أفريل 1997 م (الجريدة الرسمية، العدد 27-1997م) المتضمن قائمة نشاطات الصناعة التقليدية والحرف.
- 6 محمد سليمان الطيب، مرجع سابق، ص ص 72-74.
- 7 محمد سليمان الطيب، مرجع سابق، ص 95.
- 8 محمد سليمان الطيب، مرجع سابق، ص ص 11-12.
- 9 محمد سليمان الطيب، مرجع سابق ص ص 2-3.
- 10 EGNIER Yves, «Les Chaamba sous le régime français», thèse pour le Doctorat en droit, Domat-Montchrestien, Paris, 1938, pp. 58-59.
- 11 REGNIER Yves, «Les Chaamba sous le régime français, leur transformation», Domat-Montchrestien, Paris, 1939, p. 59.